الفصل السَّابع

إشباع حاجة الطفل

إلـــي الفهـــــــــــم

لعب الطفل المبكر، وتناوله لكُلِّ ما حوله، وما يقع تحت بصره ويده، وبحثه هنا وهناك٠٠إلخ، ليس إلاَّ إشباعاً لحاجته المُلِحَّة للفهم، وليس إلاَّ رغبة في اكتساب المعارف والمهارات الأساس في حياته٠

والطفل يكتسب معلوماته، وتنمو معارفه عن طريق خبراته التي يُمارسها بنفسه نتيجة استعمال عضلاته، أو عن طريق حواسه المختلفة، أو عن طريق التساؤل والاستفسار عمَّا لا يعرفه، مستخدماً في ذلك كُلّ ما يُتاح حوله من كتب، ومجلات، وبرامج تلفزيونية٠٠إلخ٠إنَّه يقرأ، ويسمع، ويعمل، ويُمارس، ويعبث، ويتأمَّل٠٠وصولاً إلي المعرفة.

● كيف نكتشف نقص حاجة الطفل إلي الفهم ؟

إنَّ بعض الأطفال يُحيرهم هذا العالم، إنَّهم لا يستطيعون تفسير ما فيه تفسيراً معقولاً، ونحن عندما نشعر بالحيرة، وعندما لا نستطيع فهم ما يحدث حولنا، فإنَّ الأرض من حولنا تبدأ في الاهتزاز، إنَّنا نعتقد أنَّ الآخرين الكبار والصِّغار في حالة طيبة، ولكنَّنا نحن لسنا كذلك، إنَّنا نعتقد أنَّ ثمَّة أشياء يجب علينا أن نعرفها؛ لأنَّ معرفتنا بها تُعطينا ثقة في أنفسنا ولكنَّنا لا نعلمها، وبالتالي يضعف إيماننا بأنفسنا٠

إنَّ هناك أطفالاً بهذه الحالة، لا يعرفون الأسئلة التي يجب أن يسألوها، وأحياناً أخري يسألون ولكنَّهم لا يحصلون علي إجابات تُشبع حاجتهم للمعرفة والفهم.

إنَّ أسئلتهم في بعض الأحيان تكون مباشرة بشكلٍ مُزعج، وتختص بمسائل شديدة التعارُض في الطبيعة، فإذا تمَّ إهمالها في المدرسة، وإذا كانت الإجابات المُقدَّمة تؤدي إلي مزيد من الارتباك، وإذا ظن الطفل أنَّه لا يفهم ما يجري حوله فإنَّه قد يُصاب باضطراب عاطفي.

ولننظر الآن إلي بعض الأعراض التي قد تظهر علي هذا النوع من الأطفال:

● في دأبٍ شديد يُلقي الطفل أسئلة حول موضوعات متنوعة، مُطالباً بالإجابة الفورية عليها، وهو يتحري لاستكشاف الأشياء والمواقف. والغريب في الأمر أنَّه عندما يحصل علي إجابات من والديه أو مُعلِّميه، فإنَّه يشك في صحتها !!

ومن بين تلك الموضوعات التي تتمحور في شكل أسئلة، والتي يطرحها علي الكبار: لماذا تنشب الحروب، وتنتشر النزعات بهذه الكثرة في الوقت الذي يقول فيه الجميع أنَّهم يبغون السَّلام !!

أو يُريد أن يعرف: لماذا نقول دائماً أنَّ الجميع متساوون في حين يمتلك البعض أموالاً طائلة بينما غيرهم لا يمتلكون إلاَّ أقل القليل!!

وهو يود لو أنَّ أحداً ساعده في معرفة الفرق بين الصواب والخطأ٠وهو كذلك يسأل بسذاجةٍ عن شكل الله سبحانه وتعالي !!

وهو يتوق كثيراً لكي يعرف علي وجه التحديد كيف جاء أخوه الصَّغير إلي هذه الدنيا ؟!

● وكثيراً ما يكشف مثل هذا الطفل عن عدم رضائه وفهمه للأشياء والمواقف كمَّا يقوم الكبار بتفسيرها، ولذا فهو يقول: «هم يحاولون إخفاء هذا الشيء عني»،

أو قد يسأل: « لماذا يطلبون مني في البيت السكوت كلَّما سألت ما الفرق بيني وبين أختي ؟» ، وربما يقول هذا الطفل: «دعوني أبحث بنفسي عن حقيقة هذا الأمر» ٠

وهذا الطفل أيضاً يود لو أحد ساعده علي أن يبت في الأمر عندما لا يكون واثقاً٠ إنَّه يود لو يكف الآخرون عن إثارة الارتباك في نفسه حول ما يعتقده ويؤمن به٠

وغالباً ما يُعبِّر هذا الطفل عن رغبته في معرفة المزيد من المعلومات، فنري الطفل يسأل: « أُريد أن أعرف كيف أُحبّ وطني حُبًّا شديداً، وفي الوقت نفسه عليَّ أن أُحبّ النَّاس في البلاد الأخرى أيضاً ؟ »٠ وهو يُريد كذلك لو أن والديه ساعداه أكثر علي فهم نفسه٠

● وكثيراً ما يتخذ الطفل المحتاج للفهم عبء مسؤولية الحصول علي المعلومات علي عاتقه وحده٠إنَّه قد يغفل آراء الآخرين دون سؤال، وقد يقرأ باستمرار وفي نهمٍ شديدٍ، وقد يكون مُتمكِّناً في قراءاته عن الطيور،أو الحيوانات، والأسماك، والنباتات، وقد يجمع أكبر قدر من العملات، وطوابع البريد، والطائرات،وال عربات،والمجسمات،والمكعبات٠٠إلخ٠

وهذا الطفل قد يصبح عدوانيًّا في بحثه عن المعلومات، إنَّه يسأل كثيراً: لماذا ؟، و كيف ؟، و متى ؟، و أين ؟٠

وقد يتشكك دائماً في السلطة، وقد يكون غير متسامح ومتحامل، ومثل هذا الطفل أيضاً يعمل في دأبٍ علي فك الأشياء أو اللُّعب الآلية إلي أجزائها الصَّغيرة٠ وكثيراً ما نري مثل الطفل يتخذ عادات في عمله ناضجةً تماماً، وقد يكون ذا مقدرة فائقة علي التمييز، وهو يقرأ كتباً أعلي من مستوي سِنه في مختلف الموضوعات، وقد يتردد كثيراً علي المكتبات بغرض القراءة،أو الاستعارة٠

● وعادةً ما يوحي الوالدان لمثل هذا الطفل بأنَّه سيفهم فيما بعد، وإن المُعلِّمين سوف يُفسِّرون له الأشياء التي تُثير حيرته، ولكن ــ بكُلِّ أسف ــ فإنَّ هذه التفسيرات لا تأتي أبداً!!

ويستمر النهج علي هذه الرتابة٠ وغالباً ما نجد بعض الآباء أو المُعلِّمين يقولون لمثل هذا الطفل: «سوف تعرف الإجابة علي سؤالك هذا عندما تكبر»، أو: «لقد قمت بشرح هذا أكثر من ثلاث مرَّات قبل ذلك»، وكذلك: «يا ولد لا تسأل مثل هذا السؤال عن الخالق عز وجلّ».

وهناك إجابة قد يظن الكبار أنَّها تردع الطفل وتؤدبه، كأن يقولوا له: «لا داعي لهذا السؤال فإنَّه يدل علي سوء أدب، وقلة تربية.. أنت صغير وتسأل هذه الأسئلة، فعندما تكبر وتخرج من البيضة ماذا سوف تسأل إذاً، أنتم جيل غريب حقاً» !!٠

وعندما يواجه الطفل التأنيب، والتحقير، والاستخفاف باستمرار بتعليقات مثل: « حاتم.. لقد أصبح دمك ثقيل، إنَّك تُكثر من الأسئلة، في المهم وغير المهم، لماذا لا تهدأ يا (سقراط) عصرك وأوانك ؟ » فماذا يكون شعور وأحاسيس هذا الطفل الصَّغير، لماذا لم نُجب علي أسئلته؟ هل هناك ما يمنع ذلك حقاً؟ أم ماذا ؟!!

إنَّ هـذا الطفـل المسـكين يشـعر حقـاً بالارتبـاك والحيـرة، هنـاك الكثيـر ممَّـا يـود معرفتـه، وإنَّ الآبـاء والمُعلِّمـين لا يجيبـون علـي أسـئلته إجابـة شـافية، مـا يقولـه الطفـل كـرد فعـل يدعـو للانزعـاج حقـاً، إنَّـه يقـول: «هـؤلاء الكبـار أغبيـاء، والمدرسـة غبيـة لا تُثيـر اهتمامنـا» !!

يشـعر الطفـل إذاً بالإحبـاط وخيبـة الأمـل فيمَّـن حولـه؛ لأنَّهـم لا يريـدون مسـاعدته، ويظـن أنَّهـم يتعمـدون إرباكـه، وكثيـراً مـا يشـعر بـأن الآبـاء والمُعلِّمـين لا يقولـون الحقيقـة، وبالتالـي يخشـي إلقـاء الأسـئلة تحاشـياً لتأنيبـه والسـخرية منـه، إنَّـه يسـتنكر الكبـار الذيـن يقولـون لـه دائمـاً أنَّـه مـا زال صغيـراً علـي الفهـم٠ وعـادةً مـا يشـعر أنَّ هـذا العالـم هـو عالـم الكبـار الراشـدين، ولكنَّـه لا يفهـم السـبب في ذلـك !!

إنَّـه يشـعر أيضـاً بالحيـرة بالفـروق الكبيـرة بـين مـا يقولـه الكبـار وبـين مـا يفعلونـه، والـده يقـول لـه: « لا تكـذب »، ثُـمَّ يقـول لـه لـو طـرق (فـلان) البـاب وسـأل عليَّ قـل لـه أنـا غيـر موجـود !!

ووالدتـه تقـول لـه: « لا تسـرق »، ثُـمَّ يراهـا تضـع يدهـا في جيـب بنطلـون زوجهـا وتأخـذ بعـض النقـود !!

الطفـل الـذي نريـد أن نسـبر أغـواره، ونعـرف الكثيـر عـن عالمه مترامي الأطـراف: يـزداد فضولـه ــ كثيـراً ــ عندمـا يجـد تهرُّبـاً مـن الإجابـة

علي أسئلته، ويشعر بسعادةٍ بالغةٍ، وارتياح عظيم عندما يحصل علي إجابات شافية علي جميع أسئلته٠٠هذه هي الحقيقة المؤكَّدة٠

● كيف نعي حاجة الطفل إلي الفهم ؟

إنَّ الأطفال في دور النمو يبدو أنَّهم متشبعين بفكرة أنَّ هناك إجابات مناسبة لكُلِّ ما يطرحونه من أسئلة، إنَّ هؤلاء الأطفال في سنواتهم الأولي يسألون ويعيدون الأسئلة٠إنَّ كُلَّ طفل يبدو وكأنَّه يُريد أن يجعل حياته ذات معني، وذات غرض يمكن التفاعُّل معها وفهمها، إنَّه يُريد أن يُضفي علي العالم نوعاً من النظام، إنَّه يُريد أن يري نفسه في علاقة هادفة مع العالم الذي يعيش فيه، وعندما يكبر يجد نفسه في قطاعات في العالم تبدو غير مترابطة، إنَّه يذهب إلي السينما، ويستمع إلي الإذاعة، ويقرأ الصحف والمجلات، ويُشاهد التلفزيون، ويستمع إلي مُعلِّميه وأصدقائه وأفراد أُسرته وأقربائه، ويذهب إلي المسجد أو الكنيسة، إنَّه يتعلَّم بعض الأشياء عن المرض، و الموت، والحوادث، والحرب، والزواج، والطلاق، والحج، والأعياد٠٠إلخ.

كمَّا يلتقط أفكاراً عن العنصرية، والطبقات الاجتماعيَّة، والحكومة، والحُرِّيَّة، والجمال، والحكمة٠٠وغيرها٠وعندما يكبر أكثر يحاول أن يستخلص معني لكُلِّ ذلك٠٠إنَّه يطرح مئات الأسئلة ويبحث دائماً عن طريقة ما لاحتوائها كُلّها٠

ومـن الغريـب أنَّ هـذه التسـاؤلات مـن جانـب الأطفـال يبـدو أنَّهـا تتراجـع في المواقـف المدرسـيَّة، وهنـاك بعـض الأدلـة علـي أن مُعلِّمـي الصـف السَّـادس الابتدائـي يسـألون أسـئلة أكثـر ممَّـا يسـألها الأطفـال، كمَّـا أنَّ هنـاك دليـلاً علـي أنَّ أطفـال الصـف الأوَّل الابتدائي يسـألون أسـئلة أكثـر مـن أطفـال الصـف السَّـادس٠ ومـن الواضـح أنَّ الطفـل يسـأل الأسـئلة عندمـا يسـمح بذلـك الموقـف، إنَّ الطفـل يبتـدع الفـرص عندمـا يضمـن أن لـه الحُرِّيَّـة في الـكلام، وعندمـا يشـعر بأنَّـه تائـه في هـذا العالـم، وعندمـا يشـعر أنَّـه لا يفهـم مكانـه في هـذا العالـم، وعندمـا تُلقـي أسـئلته جانبـاً دون اهتمـام أو اكتـراث بهـا٠

إنَّ أسـئلته هـي الأهـم بالنسـبة لـه، ولمسـاعدته في أن يصبـح شـخصاً أكثـر تكامُـلاً فإنَّـه مـن الضـروري جـداً أن نُسـاعده علـي فهـم بعـض مشـاكله الخاصَّـة وعلاقتـه بهـا، إنَّ إدراك الـذات في غايـة الأهميـة٠

وبعبـارة أخـري فـإنَّ منهـج مدارسـنا يجـب أن يأخـذ في الاعتبـار تلـك المسـائل ذات الأهميـة بالنسـبة للطفـل٠إنَّ كُلّ طفـل يبحـث عـن التوجيـه لنفسـه، ومهمتنـا أن نُسـاعده علـي اكتشـاف الطريـق حتـى يسـتطيع تشـكيل أغراضـه الخاصَّـة تشـكيلاً ذكيـاً عندمـا يتمكَّـن مـن فهـم هـذا العالـم٠

- **كيف يمكننا الوفاء بإشباع حاجة الطفل إلي الفهم ؟**

- ربما يكون من المهم أن يُهيئ الآباء والمربين للأطفال جواً من التسامح، ونقصد بالتسامح أن يحاولوا خلق مواقف يشعر فيها الأطفال بالحُرِّيَّة في إلقاء الأسئلة وتبادُّل الأفكار، ويكون هذا التسامح محكوماً بالأغراض التي يسعي الأطفال لمعرفتها. وعندما تبرز أهمامات الأطفال الخاصَّة وأسئلتهم، وعندما يُعبِّرون عن جهلهم بالمؤسسات الاجتماعيَّة من حولهم، والمشكلات التي تواجههم، فيجب أن يُدرك الآباء والمربون علي الفور أنَّ ذلك ما هو إلاَّ علامة علي حاجتهم إلي الفهم.

وإذا لم يكن الآباء والمربون حذرين ومتسامحين مع أطفالهم فإنَّهم سيكبتون هذه العلامات، ثُمَّ يظنون أنَّ أطفالهم ليست لديهم أية مشكلة، وهذه ليست حقيقة علي الإطلاق، لأنَّ أطفالهم يحتاجون إلي كثير من الإجابات والاستفسارات التي تمَّ كبتها، وهذا الكبت ــ بالطبع ــ لا يعني زوالها.

- في استطاعة الآباء والمربين أن يبذلوا اهتماماً خاصًّا بالغرض الذي يسعي الأطفال إلي معرفته بطريقةٍ مستترة، وربما يكون هذا التستُّر هو أكثر الطرق فاعلية، وعندما يعمل الأطفال في مشروعات جماعية أو شخصية يستطيع الآباء والمربون أن يُثيروا معهم التساؤل عمَّا يأملون في تحقيقه، وعن السبب في

أهميته، وعندما يتكرَّر ذلك، وتتشكَّل أغراض الأطفال وتصبح موضوعاً للفحص والتحليل فإنَّ الأطفال يبدءون في إدراك أنَّ آباءهم ومربيهم يظنون أن أغراضهم مهمة٠

وفي بعض الأحيان قد يطرأ سؤال عن موضوع يبدو غير لائق، وفي مثل هذه الظروف يمكن للمُعلِّمين التوصل إلي وسائل لاستخدام جزء من السبورة لكتابة الأشياء التي سوف تُناقش فيما بعد٠

وفي مناسبات أخري يقول الآباء أو المُعلِّمون للأطفال الذين يتعرَّضون لمشكلات كبري: «هل يمكن لنا، أنا وأنت أن نتكلم عن ذلك فيما بعد ..؟»، وفي بعض الأحيان يقولون بصراحة وصدق أنَّهم لا يستطيعون المساعدة في هذا السؤال ويقترحون أن يكون مشروعاً يطلبون فيه مشورة خارجية٠

يستطيع الآباء والمربون أن يبذلوا مجهوداً لتوفير مصادر أكثر للمعلومات ويطلبوا مزيداً من المجلات تمثل مختلف وجهات النظر لتوزيعها٠ ويستطيعوا أن ينتقوا صحفاً وكتباً مختلفة لكي تعطي مجالاً أوسع من الموضوعات لمدارستها ومناقشتها٠

- بعض الأسئلة التي يسألها الأطفال تتصل مباشرة بمشكلات في غاية الأهمية علي الصعيدين المحلي والدولي، ومثل هذه

الموضوعات تتسم بالتعقيد الشديد، ويشعر كثيرٌ من الأطفال بالحيرة إزاءها٠ ويجدر بالآباء والمربين أن يُعدوا برامج جماعية يُقدِّم فيها أفراد مختلفون وجهات نظر متباينة ممَّا يجعل الموضوعات أكثر وضوحاً، وتتبع هذه البرامج مناقشات وفترات أسئلة حيث يتم تعويد الأطفال لإثارة التساؤلات التي نبعت وتبلورت لديهم٠

ويمكن أن تُصبح هذه الأسئلة موضوعاً لمزيدٍ من الإيضاحات، وبذلك فإنَّ الأطفال يشعرون بأنَّ الآباء والمربين يحترمون حاجاتهم للفهم، وإذا تم هذا كُلَّه في جوٍ من الهدوء والود، سوف يزداد شعور الأطفال بالأمان الداخلي٠

- عندما يختار الآباء والمربين الأفلام السينمائية، أو التسجيلات الصوتية، أو القراءات ، أو الخبرات المباشرة، فإنَّهم يميلون أحياناً لقصر اهتمامهم علي ما يشتمل علي إجابات جاهزة، ونحن بالطبع نريد أن نخلق مواقف تحث الأطفال علي التفكير في اهتمامات أخري وبالتالي أسئلة أخري٠إنَّ المواقف التي نختار فيها بين العديد من المواقف الجيدة أو الاختيار بين العديد من المواقف السيئة أفضل كثيراً لإثارة التفكير والتخطيط من المواقف النمطية، حيث يكون الاختيار الوحيد بين شيئين أحدهما ممتاز، والآخر ردئ.

إنَّ الحياة ليست كذلك فلا يجب أن نعوِّد الأطفال علي وجود جانبين فقط لأي مشكلة أو موقف حيث أنَّ الاستجابات لأي موقف لا يجب أن تحتمل الصواب والخطأ فقط.

- في المدرسة يستطيع المدير أن يرتب مع الصحف المحلية، أو الإذاعة أو التلفزيون تنظيم سلسلة من الندوات تناقش فيها موضوعات كُلّ أسبوع علي مدار السنة الدراسيَّة، وبعض هذه الندوات يمكن أن تكون ندوات مع الطلاب، وبعضها مع الآباء والمُعلِّمين، ويمكن أن تضم هذه الندوات بعض الخبراء سواء من المدرسة أو من خارجها، ويمكن أن تُطبع ملخصات لهذه الندوات وتُستخدم كموضوعات للقراءة، أو يمكن للأطفال الذين حضروا تلك الندوات أن يُقدِّموا ملخصات شفوية، ويمكن تطبيق ذلك علي الندوات التي تُعقد في الإذاعة أو التلفزيون.

- إنَّ كون بعض الأسئلة أو الموضوعات تتسم بـ «الضخامة» ليس سبباً في استبعادها من اهتمامات الآباء والمربين، وبذلك يجب ألاَّ يرتكبوا خطأ التفكير في استبعاد بعض الموضوعات عن مجالات أسئلة وتفكير الأطفال، بل يجب أن يُهيئوا أطفالهم لمزيد من فهم الغرض الأساس لأسئلتهم حتى يتم التخلُّص من كُلِّ الأسئلة التي تراودهم عن تلك الموضوعات، وأن يكلفوا بعض المجموعات من الأطفال بعمل ملخصات كنتيجةٍ ملموسة لأي عمل يقومون به أو يقومون بمناقشته.